فصل مدهش

Strange Interlude

« اما الانسان فضعيف بائس ، والصورة
في ايدي القدر ، ولكنه يشق وطأته بعبقرية
وجلال ! » سفي مارك

يقول « تشارلز لام » : « الملهى ألذ تسلية » ، ولا بأس ان يضحك الانسان ويسر ويتبع نفسه ثمرات الحياة وفنونها ، على أن يكون في ذلك معتدلاً حكيماً . ويرى « برنارد شو » أن الملهى يجب ان يكون « معملاً للتفكير وحانة ومنهاً للوجدان ، ومظهراً للسلوك الاجتماعي ودرعاً واقية من الملاهة واليأس ، ومعبداً لارتقاء الانسان » ويقول في موضع آخر : « إن الملهى مكان لا يرتاده الانسان إلاّ لينسى نفسه ، حيث يكون قد جُذِبَ اهتمامه وأُثيرَتْ عواطفه الى أقصى درجات الاستعداد والنشاط ، وتلاشى وعيه »

ولقد كانت المسرحيات عند قدماء الاغريق من اسمى انواع الادب وفنونه ، تعنى بالمسائل الاساسية الهامة التي تشغل حياة الانسان ، فكانت صوراً لفلسفتهم ومظهراً لآرائهم في الحياة ، وهي التراث الخالد الذي أبقوه اثراً حياً في الادب العالمي ، كمسرحيات صوفقلس واسكيلس ويوريبيديس . وما تبقى منها ليس الاّ جزءاً ضئيلاً من تفكير ذلك الشعب العريق وأثراً نفيساً من عبقريته التي بقيت على مرّ العصور ، فكانت أساساً لمدنية اوربا وثقافتها العقلية

ولعلّ اروع مظهر من مظاهر الدراما الحديثة ان المؤلفين المسرحيين يبذلون ما في استطاعتهم للتعبير عن خفايا النفس الانسانية ومراميها واظهار الافكار على ملامح الوجه قبل النطق بها . وهم يسعون بواسطة « الملهى » — المسرح — ليس للتعبير عن حقائق الحياة الظاهرية فحسب ، بل وليبان المشاعر والافكار الخفية التي هي العامل القوي في حياتنا

الصلبة . وهم يفرون بذلك النفوذ الى ما وراء هذه الحياة العادية التي نحياها للوصول الى اعماق النفس الانسانية والارتشاف من مصادر الفكر الصافي والينابيع المجهولة المتدفقة نوراً وفكراً سامياً . وبعد فهذه رسالة « اونيل » التي يعمل من اجلها — بواسطة شخصيات مسرحياته — لاظهار العالمين المختلفين اللذين يحيا بهما الانسان — العالم الظاهر ، عالم الحقيقة والواقع ، و — العالم الخفي — الذي يتستر وراءه الانسان ، عالم الاحلام والافكار المنبثة كما يبدو ذلك في مسرحيته Strange Interlude

فكيف اذن حاز « اونيل » هذه الشهرة العالمية وامتاز على اقرانه وزملائه بمسرحياته الرائعة ؟

أَلَمْ يكن — كما قال (كلود برتون) :— « فريداً ممتازاً بقصصه حين رسم لمعاصريه صوراً حقيقية متنوعة لحياة الشعب الاميركي ، وصفحات ملونة من آماله وامانيه ، واذواقه وعاداته ، وآلامه وشقائه ، مما لم يتسنَّ لمؤلف مسرحي قبله عرض هذه الصور المختلفة على المسرح بقوة وصدق وجاذبية ؟ ! »

***

نصل الآن الى نقطة هامة في تطور شخصية اونيل الادبية ، بعد تنقله بين المذاهب الفنية المختلفة ، فاذا بنا عند مسرحيته الفريدة (فصل معترض) Strange Interlude . وهي قصة «امرأة واربعة رجال» وتطورها في نواحي الحياة المتقلبة ، وهي مسرحية طويلة ذات تسعة فصول ويستغرق تمثيلها خمس ساعات . جرت وقائعها في اميركا وتمتد خمساً وعشرين سنة . وتظهر هذه المسرحية مُعَبَّرَةً بالاحاديث النفسية الداخلية لكل شخص من اشخاص القصة على حدة ، وذلك بعد ان يقول كل شخص دوره في القصة بصوت عال ، يلتفت جانباً ويقول وكأنهُ يناجي نفسهُ ما يدور في نفسه . ومن مزاياها انها تزخر بالقوة والحياة ، تشعر بها كأنها امام امر واقع . فهي تؤثر في المشاهدين والمستمعين تأثيراً قوياً ، حتى ليشعر هؤلاء حين انتهائها انهم امام قصة حقيقية تمثل وتجري وقائعها في الحياة وليس على المسرح

نحلل لنا هذه المسرحية ، وهي مأساة متشابكة الحلقات ، نفسية امرأة معذبة بائسة . فهي قصة حياتها وحبها ومغامراتها . وخلاصتها : ان (نينا) Nina وهي ابنة

أستاذ من (نيو اكلند) في اميركا ، خطبت الى طيار اميركي اسمه (غوردون) Gordon قتيل في الحرب الكبرى . وكان قد نصحهُ ابوها ان لا يتزوج من (نينا) قبل عودته سالماً من ساحة الحرب ، خوفاً على ابنته ان تبقى ارملة فيها اذا لم يعد زوجها . وكذلك ذهب (غوردون) وحارب في فرنسا ، ولكنه لم يعد كأُلوف مثله ، فحنقت الفتاة على ابيها حنقاً عظيماً ، لانهُ مانع من زواجها من تحب ، وقضى على آمالها وهي تحلم بحبيبها وخطيبها المفقود !

يرفع الستار في الفصل الأول عن بيت الاستاذ حيث نجد (تشارلز مارسدن) Charles Marsden وهو قنصلي مشهور وصديق للعائلة من زمن طويل . عاد من اوربا ، وهو أعزب متعلق بأمه ومخلص لها الاخلاص كله ، وهو يحب (نينا) ويتودد اليها بيد انهُ لأسباب قنصلية ، لم يصرّح لها بحبه ، فهو حيي خجول ، ذو شخصية عجيبة ، نكاد نراه في كل فصل من فصول المسرحية ، يحوم حول المأساة ، وكأنهُ يشعر بها ، ونكنهُ يحجم عن الوقوع في هذا المأزق . فهو في بيئة مشبعة بالمؤامرات والحقد والشحناء

ثم ان (نينا) تصاب بحالات عصبية شديدة وعلى وشك ان تفقد هاعقلها . وهي تمل حتفها الشديد وتفر من أبيها الذي قضى على احلامها فتقرر الانتظام ممرضةً في احد المستشفيات لمواساة الجنود العائدين من ساحات القتال ، وتوقف نفسها على خدمة الجرحى ذكرى لحبيبها المفقود (غوردون) !

وأما في (الفصل الثاني) فاننا لا نزال في بيت الاستاذ ، وهو الآن مريض ينازع سكرات الموت ، وحولهُ (تشارلز مارسدن) صديق العائلة يعتني به بانتظار (نينا) . تدخل (نينا) بيت أبيها ومعها الدكتور (ند دارل) Ned Darrell احد أطباء المستشفى ، و (سام ايفنز) Sam Evans ، وهو شاب معجب بها ويحوم حولها

اما الدكتور (دارل) فهو بعيد عن تأثير العاطفة الجنسية ، ولا يهتم بالنساء كثيراً ، ولكنهُ شديد الكراهية لتشارلز مارسدن ويبغضهُ بغضاً شديداً . فهل تكون (نينا) سبباً لذلك ؟ ! . . .

(نينا) مريضة النفس واهنة ، منهوكة القوى ، حزينة يائسة . تتنابها أوجاع مقلقة ، فيشير عليها الدكتور (دارل) بالزواج لتضع حداً لآلامها النفسية المبرحة .

وحينما تسأله (بينا) ممَّن تتزوج ، يرشدها بصديقها الشاب (سام ايشتز) فتقبل نصيحته ويتزوجا

تمر على هذه الحادثة سنة ، تزور بعدها (بينا) وزوجها بيت حماتها (أم سام ايشتز) ، فتفشي هذه لها سرًّا خطيرًا ، وهو ان في العائلة مرضاً وراثيًّا عُضالاً ، قضى على ابي سام وجده وأبيه بالموت في مستشفى المجانين ، وتطلب الى بينا ان لا يكون لها أولاد . ولكن هذا الانذار يأتي متأخراً ، وأم (سام) قاسية القلب وتريد ان لا يكون لابنها أولاد ! وأمانينا فهي على العكس من ذلك ، تحب ان تكون سعيدة وان يكون زوجها مغتبطاً بها ، فاذن يجب ان يكون لها ولد ولو كان من شخص آخر ! ؟

يمضي الزمن ، والوقت يمر بسرعة . خرجت (بينا) من المستشفى والولد لم يولد بعد ، وزوجها (سام) قلق الخاطر مضطرب البال ، يشعر بالكآبة واليأس ، فقد تغيرت طباعه واضطربت حياته ، وخبت من نفسه جذوة النشاط ، فلم يعد قادراً على العمل وكتابة الاعلانات (في المحل الذي يعمل فيه) فينذره اصحاب المحل ويهددونه بالطرد اذا لم يعُدْ الى الاهتمام بعمله . ومع ان (بينا) بدأت تشعر الآن بنفور من زوجها (سام) ، الاَّ انهُ لا يزال له في قلبها بعض الحب ، فهي تريده (ان يكون سعيداً) ، وتشعر انها بعملها هذا انما ترضي روح خطيبها الاول (غوردون) وهي ما زالت عالقة بحبه ، وان كان هو قد صار رميماً تحت التراب ! . . .

فكيف العمل اذن ؟ . . واخيراً تتفق لها الحيلة مخرجاً سهلاً من هذا المأزق . فهي تصرح بكل شيء للدكتور (داول) وتقنعهُ ان يكون هو اباً لولدها الذي تريده وتحلم به ! اما الدكتور فيقبل اقتراحها بطيبة خاطر — ولكن كمالم فقط ، لا تهمهُ الاَّ حقائق العلم المجردة ! — اما انهُ يشعر حقيقةً بحب وجاذبية نحو (بينا) فهذا مما لا شك فيه ! !

ثم ترجوه (بينا) ان يطلع سام على القصة كما هي وان يشدد عليه بطلب الطلاق منها ، بيدَ ان (داول) وهو على ذلك ان يعمل بما طلبت منهُ (بينا) يتريث قليلاً ، اذ تتراءى له مغبة هذا الامر وما سيؤول اليه حال سام فيما اذا عرف الحقيقة ، ولذا يتم فرصة غياب (بينا) وخروجها من الغرفة فيخبر سام انهُ سيكون أباً عن قريب ،

ويترك رسالة (لينا) يطلبها بعزمه على السفر الى اوربا

تمر سنة على هذه الحادثة ، فيجد سام عملاً ويصبح رجلاً نشيطاً مجداً عاملاً ولا سيما بعد ان رزق ولداً ، فأصبح يفخر بحياته العائلية وعمله النافع ، قليل الاهتمام بالحوادث العامة . ولكن (دارل) يعود فجأة ، فيخبرها (تشارلز) عن (دارل) ويطلبها بشؤونه واعماله ، و(لينا) لا تزال تحبهُ ، واما هو فقد خمدت عاطفته نحوها

ويلي ذلك مشهد رائع مؤثر ، ربما كان اجمل ما في القصة ، حيث تجتمع (لينا) واصدقاؤها الثلاثة ، يتحدثون بصراحة والطفل (غوردون) في الطبقة العليا من المنزل يشرف عليهم . ويتحتم على (دارل) أن لا يعترف بأن (غوردون) ابنه ، لذلك يراه يبتعد عن هؤلاء ويذهب في مهمة الى (پورتوريكو) للاشتغال ببعض المسائل الطبية هناك

وتمضي عشر سنوات يتقدم خلالها (سام) ويتخذ له مقراً في (بارك افنيو) وهو لا يتميز عن غيره من رجال الاعمال في اميركا ، بوجهه الاحمر المورد ، واعتداده بنفسه وشموخ انفه !

ثم يعود دارل ويجتمع بلينا والولد (غوردون) الذي يكره عمه (!) الدكتور (ند دارل) كرهاً شديداً ، ولكنهُ لا يعرف سبب ذلك البغض والنفور ، وفي الوقت نفسه يحب أباه (!) سام . . . وأما (لينا) الشقية البائسة ، المعذبة المتألمة ، فتعيش في جوّ حافل بالأكاذيب والدسائس والخداع ، وتسعى لاكتساب ود (دارل) ليعود اليها . وفي خلال ذلك يرى (غوردون) الصغير أمهُ تعانق (دارل) فتثور العواطف في نفسه ويأتي بالبغيضة الصغيرة التي أهداها اليه دارل ويلقيها على قدميه فتتحطم ، ويرسل الاثنين انهُ سيخبر اباه (!) سام بما شاهد منهما

نصل الآن الى الفصل الذي قبل الاخير وقد جرت حوادثه بعد بضع سنوات على اليخت الذي يخص (سام) فنرى (غوردون) وهو يقوم بدور في المسابقات المائية مختاراً من قبل (الجامعة) التي يدرس فيها ، وهو خطيب الآنسة (مادلين) وهي الآن في اليخت مع (سام) و (لينا) و (دارل) و (تشارلز) يشاهدون المسابقات التي يشترك فيها (غوردون) . (دارل) و (تشارلز) يلاحظان بدقة كل حركة تصدر من (لينا) . انها تفكر في (مادلين) — خطيبة ابنها غوردون —

لانها ستتزوج منه وتحرمها من ابنها . وهو رمز لحبها واخلاصها لحبيبها الاول الطيار (غوردون) . ولذلك فهي تصرم على ان تُسلِّم الفتاة (مادلين) بالعرض الورائي المتأصل في اسرة (ايفنز) لتحول بينها وبين الزواج من ابنها ، بيد ان (تشارلز) وقد لاحظ عليها ذلك ، وفهم ماعزمت على عمله وقوله ، يتدخل في الوقت اللازم ويتمم من الكلام

انتهى السباق ، واذا بغوردون هو السابق ، فتستولي عندئذ على سام غمرة شديدة من الهياج والفرح فيقع مغشيًا عليه ، وتغمى (بينا) في تلك اللحظة نفسها وهمومها ، فتبكي ستحة فوق سام

واخيراً فنحن في حديقة منزل (ايفنز) في (لونغ آيلند) ، واذا بسام قد مات وجاءت (مادلين) ومعها (غوردون) بالطيارة لمشاهدة (بينا) . ويشاء القدر ان يعود (دارل) فجأة من مقرّ عمله في (پورتو ريكو) ، و (تشارلز) موجود كالمعتاد (في هيجة الزحام !)

نشاهد الآن منظراً مؤثراً حيث يطعن (غوردون) كل ما بنفسه من حقد وضغينة نحو (دارل) — ابيه — ثم يهجم عليه فيلطمهُ . عندئذ تصرخ (بينا) وتقول

— غوردون ! . . . ماذا فعلت ؟ انك تضرب ابالك . . .

فيلتفت غوردون الى امه متعجباً ويقول

— هذا ما كان يشعر به ابي لو كان حيًّا . أو ليس الم دارل خيرا صدقائه ؟ ! اما السر فلا يزال خفيًّا مكتوماً . . .

ويسافر بعد ذلك بالطيارة (غوردون) وخطيبتهُ (مادلين) . وتمر الطيارة محلقة فوق الحديقة فتتذكر (بينا) حبيبها الأول (غوردون) الطيار . الذي كان لهُ في نفسها اعمق الاثر ، وكانت لهُ دائماً مخلصةً وفيةً ، فيصرخ (دارل) ويمتزج صراخه بهدير الطيارة قائلاً : « إنَّك ابني يا غوردون ! » ثم يتوارى عن الانظار وتبقى (بينا) مع (تشارلز) وقدماتت عاطفتها وخبت الى الابد جذوة حبها ! اما تشارلز فلم يخفق قلبه يوماً للحب . وتتمنى (بينا) من (تشارلز) وهو الوحيد الذي بامكانه الآن ، ان يُسبغ عليها نعمة الحياة الهنية والعيشة الرضية !

تلخيص وتعليق : فؤاد عنتابي.